

THE PALESTINIAN CAUSE IN ALGERIAN POETIC DISCOURSE: FROM REALITY TO ARTISTIC REPRESENTATION

Dr. Mahammed Mezaini

Djilali Bounaama University – Khemis Miliana (Algeria),

E-mail: m.mezaini@univ-dbkkm.dz

Received: 03/2025, Published: 05/2025

Abstract:

The Palestinian cause is one of the most prominent humanitarian issues that has preoccupied Arab public opinion and continues to do so to this day. The forms of this engagement have varied in terms of methods of discussion and approaches to presentation and treatment, particularly in creative fields. The literary approach to the Palestinian event—encompassing its political, historical, and cultural dimensions—stands out as one of the most expressive and profound. Among literary forms, poetic discourse has been especially engaged with the Palestinian cause, due to its unique capacity for imagery, aesthetic linguistic depiction of place, and artistic representation of reality. This raises the question of how the image of Palestine has been portrayed in Algerian poetry—from lived reality to artistic representation. How has the Algerian poet depicted Palestine in his verses? And what aesthetic and artistic dimensions has he relied on to present this image?

Keywords: Palestinian cause, humanitarian issues, Algerian poetry, artistic representation, image of Palestine, poetic discourse.

القضية الفلسطينية في الخطاب الشعري الجزائري من الواقع إلى التصوير الفني

د. محمد مزاييني

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة

البريد المهني: m.mezaini@univ-dbkkm.dz

ملخص:

تعدّ القضية الفلسطينية من أهم القضايا الإنسانية التي شغلت الرأي العام العربي وما تزال كذلك إلى يومنا هذا؛ وقد تعددت أشكال هذا الانشغال من حيث أساليب نقاش، وطرائق الطرح والمعالجة، خاصة من النواحي الإبداعية؛ ونخص بالذكر المقاربة الأدبية للحدث الفلسطيني وما يتصل به من سياقات سياسية وتاريخية وثقافية، ولعل الخطاب الشعري من أكثر الخطابات اشتغالا على هذا الموضوع؛ من حيث خصوصية التصوير، وكذا جمالية الوصف اللغوي للمرجع المكاني، وكذلك أسلوب التمثيل للمشهد الواقعي؛ وهذا ما يثير سؤال القضية الفلسطينية في الخطاب الشعري الجزائري من الواقع إلى التصوير الفني؛ فكيف تمثّل الشاعر الجزائري صورة فلسطين في أشعاره؟.

الكلمات المفتاحية: القضية الفلسطينية، القضايا الإنسانية، الخطاب الشعري، التصوير الفني، صورة فلسطين.

مقدمة:

عُني الخطاب الشعري العربي عامة بموضوع القضية الفلسطينية، وهي من القضايا الإنسانية العربية التي أُرقت فكر الأدباء منذ أمد بعيد، دلالة على أهميتها الواقعية، فضلا عن أثرها الدلالي والرمزي في ممارسة فعل المقاومة على مستوى المنجزات الفنية؛ خاصة الشعرية منها؛ ولم يكن الشاعر الجزائري بمعزل عن هذا الانشغال؛ فقد ساهم بدوره في نضال الكلمة من أجل تحرير الشعوب، والدفاع عن هويتها المسلوبة، والكشف عن الوجه الآخر للواقع الاجتماعي الذي تعيشه الأوطان المضطهدة، والكشف عن مختلف مظاهر الاستبداد التي تعانيها.

التعريف بالأدب المقاوم:

تتخذ المقاومة تجليات جمالية عدة على مستوى المنجز الأدبي؛ وذلك بما يتوافق ورؤية العالم الخاصة بالأديب أو الشاعر، فضلا عن رؤيته الإبداعية في معالجة الموضوعات المستوحاة من الواقع الإنساني، في اتصال وثيق بقضية الالتزام الفني، غير أنّ المسألة النقدية المطروحة للنقاش في هذا المجال تتعلق أساسا بالبنية العميقة للصورة الشعرية الملتزمة.

هناك عدة مسميات يأتي على ذكرها الناقد في سياق خطابه الواصف للأدب الملتزم؛ خاصة الأدب الوطني، وكذلك الأدب الشعبي بحكم ما يشتملان عليه من محاكاة للمرجع الواقعي، غير أن الصلة بين هذه الآداب خاضعة لمنطق الحدود الموضوعاتية؛ وهذا ما أكدّه "شكري غالي" حين قال: «وأدب المقاومة إذن لا يقتصر على ما يُسمى بالأدب الشعبي، ولا يقتصر على ما يُسمى بالأدب الوطني؛ لأن المقاومة أرحب من أن تنحصر في هذه الدائرة المغلقة أو تلك، فإذا أضفنا أنّ الأدب في ذاته بدأ تاريخه "نشاطا مقاوما" تأكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أنّ دور الأدب في الحياة أكبر من أن ينكره أحد، وتأكد لنا أنّ هذا الدور هو توليد الصراع في نفس الإنسان إذا خلت منه، وتحديد حس المقاومة إذا كان هذا الحس قد خبا مع الأيام»¹.

إن مقاومة الأدب لا حدود لها، خاصة إذا أدركنا الممارسة الأدبية على أنها إنجاز فني قوامه مراجعة الواقع من منظور الموقف الإبداعي الخالص، الذي يقارب الموضوع الأدبي وفق مفاهيم المحاكاة والانعكاس والالتزام، بالإضافة إلى رؤية العالم وغيرها من مقولات النقد الاجتماعي.

ولعل السمة الغالبة التي يتصف بها أدب المقاومة؛ انشغاله بقضايا الإنسانية، وتطلعات البشر نحو مستقبل أفضل لا يقبل بأقل من الإنسان أساسا لفرض وجوده، لذا فإن لهذا الأدب «وجهه الإنساني العام الذي لا يندرج في تصويره للصراع البشري تحت أية أطر قومية أو قوالب اجتماعية، والجانب الإيجابي العام في هذا اللون من ألوان الأدب، هو أنه من عوامل "التجمع" لا من عوامل "الفرقة"»².

لا يخرج أدب المقاومة عن معالجة الموضوعات الإنسانية، بغض النظر عن سياقاتها المحلية أو الوطنية أو القومية، وإذا كانت أحداث الواقع سبيلا من سبيل الانقسام حول الأسباب والنتائج، فإن المقاومة؛ هي ذلك الحدث الأكبر الذي

¹ - شكري غالي، أدب المقاومة، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2024، ص 17-18.

² - عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 66.

يتفق حوله الجميع، وهذا ما يجعل من الخطاب الأدبي النضالي مساقا متجددا للدفاع عن الوجود الإنساني، بكل تفاصيله المادية والمعنوية.

وقد استمد النشاط الأدبي أثره في النضال والمقاومة من تسليطه الضوء على مظاهر الصراع الإنساني في الوسط الاجتماعي، ولهذا كان لا بد من «فهم الأدب على أنه مؤسسة اجتماعية، أدواته اللغة، وهي من خلق المجتمع، والوسائل الأدبية التقليدية، كالمزيمية والعروض، اجتماعية في صميم طبيعتها، إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبرز إلا في مجتمع»¹.

وتعد المقاومة الاجتماعية شكلا بارزا من أشكال التعبير في أدب المقاومة، ومن هذا المدخل نطرح إشكالا يتعلق باللغة النضالية التي تحتكم إلى معجم فني خاص خصوصية الموقف الاجتماعي، فضلا عن تقاليد الكتابة الأدبية الملتزمة بمناقشة مصير الشعوب، وكذا مستقبلها، وقليلًا ما نصادف أدبا خالصا في محاكاته الفنية؛ حيث ينزاح عن توصيف الواقع وتعريفه؛ كونه في الأصل من نتاجه، ولا يسعه إلا استنطاقه، والحديث بلسانه.

وهناك مسألة أخرى لا بد من طرحها؛ تتعلق بخصائص الأدب النضالي، أو أدب المقاومة؛ التي من شأنها تمييزه عن غيره من الأشكال الأدبية؛ ف «الأدب المناضل لا يكون مناضلا فعلا، إلا إذا اكتملت أدواته ومعداته، وما هي إلا المهوبة الأدبية الحقيقية لا الزائفة، والإيجاء الصادق لا المفتعل، والقدرة التعبيرية المصورة الموحية، لا المباشرة الصارخة»².

إنّ المهوبة أساس كل إبداع، يستعين بها الفنان في قضاء حاجته من الفن عموما؛ غير أنها قاصرة وحدها، إذا لم تتأتى لها الأدوات والشروط اللازمة لاستكمال متطلبات الإنجاز الإبداعي؛ فهي تحتاج إلى قوة التصوير، التي تفرضها قوة التعبير، بعيدا عن التناول السطحي، والمعالجة المباشرة؛ خاصة وأنّ الأدب يقول ما في ضميره الاجتماعي بطريقته الخاصة، وأسلوبه الأكثر خصوصية.

شعر النضال والمقاومة:

لقد تعددت أشكال الأدب وفنونه في تناول الموضوعات الواقعية، وإذا كانت الممارسات الفنية تختلف من فن إلى آخر فإن ذلك خاضع في المقام الأول إلى تقاليد الكتابة الإبداعية داخل كل فن؛ وبالرغم من أن الموضوع واحد إلا أن التصورات تختلف.

ويعدّ الخطاب الشعري من الخطابات الأدبية الرائدة في مجال الاشتغال الفني على تيمة المقاومة؛ وقد استنفذ كل طاقاته الجمالية في سياق تناوله لها؛ و«الشعر فن من فنون القول، له شروطه ومواصفاته، وهو سابق على المقاومة، يدخل في تاريخ الآداب العالمية، ويتميز بأجناسه الملحمية، والقصصية، والدرامية، والتعليمية، والغنائية، كما يتميز بتنوع مصطلحه وأساليبه»³.

1- نفسه، ص10.

2- عباس خضر، أدب المقاومة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1968، ص112.

3- نذير العظمة، أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، سورية، ط1، 2015، ص22.

وفن القول صفة يشترك فيها الشعر مع غيره من فنون الأدب، إلا أنه يختلف عنها في الشروط والصفات؛ كونه يقوم على الإيقاع والنظم، وذلك باب من البلاغة في الصنعة لا يطيقه إلا الشعراء، أما المقاومة بوصفها سلوكا إنسانيا فإنّ القول بأسبقية الأدب عامة، والشعر خاصة عنها يفتح باب آخر للجدل والنقاش.

إنّ فهم الخطاب الشعري في تناوله تيمة المقاومة مرهون بوعي التفكير النضالي، الذي راح الشاعر يلبسه أثواب الفن، وفي هذا السياق يستوقفنا مصطلح المقاومة في اتصاله بالإنجاز الشعري؛ وهو ما دفع "نذير العظمة" إلى القول: «أما المقاومة فهي فعل ينبثق من الانتماء إلى هوية قومية أو وطنية مخصوصة، متى تهددتها المخاطر، وأحاط بها العدوان والويل، والمقاومة قد تكون بالسلاح، أو بالفكر، والسياسة، والشعر، أو بها جميعا، لكنها ليست لها عالمية الشعر، فافتزان الشعر والمقاومة ليس عالميا، وهو محصور بالأوطان والأمم التي خضعت للاحتلال من الأمم الأخرى أو الاستيطان»¹.

ندرك من ذلك أنّ المقاومة تشمل مختلف ميادين الحياة الإنسانية، وكذلك النشاطات المتعلقة بها؛ بما فيها النشاط الإبداعي، وأنّ اشتغال الخطاب الشعري على موضوع المقاومة يفتح مجالا للخوض في مسائل الهويات القومية والوطنية، وكذلك الأحداث التي تعيشها الشعوب، ولكون الحدث السياسي شأن خاص فإنّ عالمية شعر المقاومة ليست إلا أثرا يكون في حدود الإفادة من تجارب الآخرين في تقرير مصيرهم بسلاح الفن؛ الذي ينطلق أساسا من وصف حالة شعب بعينه دون غيره.

وتعدّ الشعوب العربية من أكثر الشعوب التي عاشت تجارب النضال والمقاومة؛ «ولشعر المقاومة كما للخطاب القومي في الحياة العربية المعاصرة، صور وتجليات بارزة؛ منها السياسي المباشر، والأيدولوجي أيضا، ومنها الإعلامي والحماسي، ومنها التمثيلي الفني الذي يظهر في الشعر العمودي (الكلاسيكي)، والشعر المنثور أو الحديث المقفى»².

ولا تتفاوت التجارب الشعرية العربية من حيث المساق العام للموضوع فحسب، بل هناك اختلاف على مستوى تجريب الكتابة الشعرية من مدخل الأدوات الفنية، وأساليب التصوير؛ المستخدمة في التعبير عن الحدث النضالي، تحقيقا لمقاصد المقاومة، وتجسيديا لأهدافها السامية.

وهذا ما يثير سؤال المحاكاة التي يمارسها الخطاب الشعري في انفعاله بأحداث الواقع، وما يعتريها من صراعات شائكة، «وإذا كان هناك من تقارب بين تعبير الخطاب الشعري والخطوب، فإنّ حياتنا العربية تعيش الخطوب منذ نهايات القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين وما تزال، فالخطوب أثرت وفعلت في الخطاب الشعري؛ فشكّلت كلها حياة المقاومة، وثقافة المقاومة، وشعر المقاومة»³.

إن صلة التأثير والتأثر القائمة بين الحدثين الشعري والواقعي من شأنها التحكم في توجيه مسارات القصيدة العربية، وكذلك مراجعة الواقع بمفاهيم مختلفة، فينزاح المجتمع عن اتجاهه المغلوط، أو يعدّل من أفكاره الراهنة، وبذلك يكون

¹ - نفسه، ص 22.

² - فادية المليح حلواني، تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، 08ع، ص 218.

³ - نفسه، ص 218.

الإنجاز الشعري قد حقق رسالة الشاعر في الالتزام بقضايا مجتمعه، ويكون الواقع قد أفاد من رؤية الفن في تغيير ملامح الحياة الإنسانية.

لقد شكّل شعر المقاومة، الخطاب الأهم في الشعر العربي الحديث، بالنظر إلى مواكبته الأحداث التاريخية الحاسمة التي عاشتها الشعوب العربية في هذه المرحلة الحرجة من حياتها، وهو ما تحدث عنه "نذير العظمة"؛ فقال: «شعر المقاومة رافد من روافد حركة الشعر العربي الحديث ككل، رغم تفاعله مع الواقع الوطني، وظروف الاحتلال، إلا أنه ورث أدواته ومفرداته الفنية من تقاليد ومصطلح القصيدة العربية شكلا، ولغة، وإيقاعا، كما استفاد من حركة الحداثة الشعرية، وما رافقها من مذاهب وتيارات فكرية وفنية على المستويين القومي والعالمي»¹.

لقد أثبت شعر المقاومة العربي حضوره على مستوى المدونة الشعرية العربية انطلاقا من مواكبته الانشغالات الوطنية تحت ضغط الاحتلال الأجنبي، دون أن ينزع عنه عباءة التقليد في الالتزام بشكل القصيدة العربية من حيث لغة القصيدة، وكذلك الموسيقى والإيقاع، غير بعيد عن تأثيرات الحداثة الشعرية بمذاهبها وتياراتها القومية والعالمية.

ولا نكاد نستثني من أدب المقاومة العربي أيّ نموذج شعري وطني، نظمته الشاعر العربي في هذا الموضوع، بغض النظر عن البلد الذي ينتمي إليه، ولا يمكن أن نتحدث عن أدب المقاومة وعن أشعاره، دون أن نتطرق إلى أدب المقاومة الفلسطينية؛ و«هو الأدب الذي أوجدته الظروف، ونيران الحروب والمعارك، وهو الأدب الذي يصوّر واقع الشعب الفلسطيني الذي لم يجد له خيارا سوى المقاومة، وشعر المقاومة انقلب إلى شعر حزين يصوّر الجراح والألم»².

إنّ شعر المقاومة الفلسطيني قد ألهم الشعراء العرب للخوض في نظم القصائد القومية، التي اتخذت من القضية الفلسطينية موضوعها الأول، وإن كان الشاعر العربي قد فطر على التعلق بقضايا الأوطان عامة، وتلك التي التفت حولها الأمة العربية بشكل خاص.

وفي هذا السياق نشير إلى ما قدّمه شعراء الجزائر من قصائد، وخواطر شعرية، تناولت هموم البلاد والعباد، بل وتخطت حدود الوطن الواحد للخوض في قضايا العرب عامة؛ خاصة القضية الفلسطينية التي تكاد تحتل الصدارة مقارنة بغيرها من القضايا؛ كيف لا، وهي قضية العرب جميعا، كيف لا وهي الهم الأكبر الذي يؤرق الشعوب العربية منذ زمن بعيد.

نظم الشاعر الجزائري شعرا قوميا؛ عبّر فيه عن موقفه من القضية الفلسطينية صراحة، فضلا عن الخطابات الأدبية الأخرى التي قدّمها أدباء الجزائر في مختلف الأنواع والأجناس؛ و«هذا الأدب جملة وتفصيلا؛ هو أدب مقاومة»³؛ في موضوعه، ولغته، يدفع بيد القارئ إلى النضال في سبيل تحرير الأوطان، والذود عن كرامة الشعوب، توجيه الرأي العام الوطني، وكذلك العربي نحو الحدث الفلسطيني، وبيان أثره على حاضر العرب، ومستقبلهم.

¹ - نذير العظمة، أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ، ص 23.

² - علي خضري، مظاهر أدب المقاومة في شعر الشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة، مج 7، ع 01، جويلية 2019، ص 90.

³ - عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، ص 66.

المقاومة الفلسطينية في الأشعار الجزائرية:

اتخذ الشاعر الجزائري من القضية الفلسطينية موضوعا لكتابة القصيدة العربية الملتزمة، غير أن اللافت للنظر في هذه المسألة أن هذا الموضوع لم يشكل حالة استثنائية، أو محطة عابرة في تاريخ الشعر الجزائري الحديث، بل ارتقى إلى مستوى الظاهرة الأدبية بكل ما تعنيه الكلمة؛ بدليل أن كثيرا من الأقلام الشعرية الجزائرية نظمت شعرا يكاد يكون فلسطيني المرجع، عربي الحضور بامتياز، وقليل ما كان الشعراء في بلادنا ينصرفون إلى الخوض في قضايا الأوطان الأخرى مقارنة بالحديث عن الجرح الفلسطيني.

ويمكن تفسير اهتمام الشاعر الجزائري بالقضية الفلسطينية أكثر من غيرها؛ بمكانة هذا الوطن في الذهنية العربية إجمالا، فضلا عن الارتباط الوثيق لكل ما هو فلسطيني بالمرجع الديني وما يحيط به من واجبات التقديس والالتزام، خاصة الدين الإسلامي، لذا شقت هذه القضية سبيلها إلى منابر الخطباء، وأقلام الشعراء؛ وهو ما تحدّث عنه "سعد الله" فقال: «ولعل أهم قضية عربية احتفى بها الأدب الجزائري، هي قضية فلسطين، فقد نوه بها الكتاب في الصحافة الوطنية، وتغنى بها الشعراء في مناسبات متعددة؛ مما جعلها شغل الرأي العام»¹.

إنّ حضور القضية الفلسطينية في الشعر الجزائري الحديث لم يكن المظهر الوحيد للاحتفاء بها؛ بل شغلت الرأي العام الجزائري، والعربي أيضا، فأقبل الأدباء، والكتّاب يصورون أحداثها في مختلف المنابر والمناسبات، فضلا عن أثرها في الحياة السياسية، وكذلك الاجتماعية.

وها هو شيخ الأدباء "محمد البشير الإبراهيمي" (1889-1965)، يصر على مكانة فلسطين في الوعي الوطني الجزائري إلى حد أن «جعل منها قضية كل جزائري، وكل عربي، وكل مسلم...»²؛ فهي التاريخ الذي نحتاج إلى فهمه لكي نفهم حقيقة تاريخنا، والعروبة التي نستمد منها هويتها، وكذلك الروح الدينية التي تقوي صلتنا ببعضنا نحن العرب.

وقد تمثّلت القصيدة الجزائرية الحديثة صورة فلسطين الجريحة، بكل طاقاتها التصويرية، وقدراتها الأسلوبية، مستعينة في ذلك بأواصر القرابة الدينية، وكذا التاريخ المشترك؛ فقد مرّت الجزائر بتجربة الاحتلال الفرنسي التي تركت أثرا غائرا، وصدعا من الصعب تخطيه مهما بُعد ذلك الزمن، وهذه العناصر المشتركة هي التي مكّنت الشاعر الجزائري من أن يكون لسان حال فلسطين، والناطق الشرقي باسمها، وقد وُفق في ذلك إلى أبعد الحدود.

ومن شعراء الجزائر الذين اتخذوا من فلسطين وقضيتها موضوعا لهم في كتابة القصيدة العربية الملتزمة، نذكر: عبد الحميد ابن باديس (1889-1940)، ومحمد البشير الإبراهيمي (1889-1965)، والطيب العقبي (1890-1961)، ومحمد العيد آل خليفة (1904-1979)، وغيرهم؛ وكان لجهودهم الشعرية الأثر الأقوى في إثارة مشاعر

¹ - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007، ص108.

² - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3 عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص7.

النضال والمقاومة لدى الشعوب العربية، وقد ترتب عن ذلك أحداث حرب 1948 التي استفزت العدو، وجعلته في حالة من التوتر والارتباك¹.

ولم يقتصر شأن هؤلاء الأدباء في تمجيد صورة فلسطين على نظم الشعر وحده، بل كتب الإبراهيمي، «سلسلة من المقالات؛ حاول فيها استنهاض الهمة العربية، والعزة الإسلامية؛ فاستعان على ذلك بنقّس الإعجاز القرآني»²، وكانت هذه السمة الغالبة على أسلوب شعراء جمعية العلماء المسلمين خاصة، وغيرهم من الشعراء عامة.

أخذت هذه المقالات طابعا افتتاحيا، وتم نشرها في جريدة البصائر، ومن ذلك مقالة له تحت عنوان: "عيد الأضحى وفلسطين"³، التي أقبل يخاطب بها شعب الجزائر، مذكرا إياه بواجبه الوطني تجاه الوطن الفلسطيني الجريح، وأنّ الأشقاء العرب بحاجة لدعم بعضهم في السراء والضراء؛ حيث قال: «النفوس حزينة، واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟، إخواننا مشردون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجرّدون؟، تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر. وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحتنها ونغتم، ونعنى بقضيتها ونهتم، ويتقاضانا إخواننا المشردون في الفيافي، أبدانهم للسواقي، وأشلاؤهم للعواقي، أن لا نعلم حتى ينعموا، وأن لا نطعم حتى يطعموا...»

أيها العرب، لا عيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتجزوا لفلسطين المواعيد، ولا نحر حتى تقذفوا بصهيون في البحر، ولا أضحى، حتى يظما صهيون في أرض فلسطين ويضحى.

أيها العرب: حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء»⁴.

لقد ترك العيد في نفس الأديب أثرا من الأسف والحسرة، فما استطاع أن يفرح أو يسعد بهذه المناسبة الدينية العظيمة وإخوانه في فلسطين لا حول لهم ولا قوة، لا فرح ولا احتفال، لا شيء إلا الحزن، والوجع، والبؤس، والتشرد، وليس من خصال العربي أن يترك أخاه وهو بأمس الحاجة إليه.

كانت فلسطين حاضرة بقوة في وعي الشعراء والأدباء يذكرونها في كل سياق، وما من فرحة قد اكتملت لهم وإخوانهم يعانون الذل والهوان، وهذه الدعوة إلى النهوض بالهمم والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل تحريرهم غالبا ما كانت تتكرر في كل محفل أو مناسبة أو لقاء.

¹ - ينظر: نفسه، ص 108-109.

² - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 7.

³ - نُشرت ضمن العدد 53 من جريدة البصائر في تاريخ 18 أكتوبر 1948. ينظر: نفسه، ص 462.

⁴ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 462.

أما الشاعر "أحمد سحنون" (1907-2003) فقد نظم قصيدة بعنوان "فلسطين إنّا أجبنا النداء"، وقام بإلقائها في ذكرى المولد النبوي الشريف، تطلعا منه لتلبية نداء الوطن الفلسطيني للأشقاء العرب، وحثهم على نصرته بكل ما تيسر لهم من عزم وقوة، قال فيها¹:

فلسطين" إنّا أجبنا النداء	وإنّا مددنا إليك اليدا
وجئناك يا موطن الأنبياء	لنسحق كل جموع العدا
ويعلن شعبك أفراحه	ويصبح في أرضه سيّدا
وماذا جنى ليدوق الهوان	ويصبح عن أرضه مبعدا
وأنت منار العلا مذ بنت	يد الرسول مسجداك المفتدى
ومذ كنت مسرى بني الهدى	جمعت المكارم والسؤوددا
وكنت لأوجهنا قبلة	نخرّ لها ركعا سجّدا

أظهر الشاعر استعداد الجزائر لنصرة الشعب الفلسطيني الشقيق، مذكرا بقداسة الوطن، وطن الرسل والأنبياء، وأنّ فلسطين هي الأرض التي أعطت العرب المعنى الحقيقي لوجودهم، كيف لا وهي القبلة التي نتطلع إليها جميعا، والمطلب الأكبر للظفر بالحرية العربية المفقودة.

ونظم "أبو القاسم خمار" (1931-؟) قصيدته "القسم"؛ مشيدا بأجداد الجزائر، وشعبها الذي بذل من الشهداء ما نال به شرف الحرية والانتصار، ليكون نموذجا لغيره من الشعوب المناضلة، مستحشا أبناء جيله للنهوض في سبيل نصرّة فلسطين وشعبها المضطهد؛ حيث قال²:

إنّا هنا .. من غضبة الأوراس، من قمم الكفاح
من قبلة الشهداء .. من قلب الملاحم والجراح
يا شعبنا الجبار .. يا زحفا تحرك كالرياح
ندعوك باسم ترابنا الغالي .. إلى حمل السلاح

لن نرتضي عارا جديدا في فلسطين السليبية
لا .. لن يداس المسجد الأقصى، وأردنا الحبيبة
وثرى دمشق، معاقل الأبطال، جبهتنا المهيبة
كالسيل تقتحم الجحيم، كتيبة تتلو كتيبة

¹ - أحمد سحنون، ديوان الشيخ أحمد سحنون - الديوان الأول، منشورات الحبر، الجزائر، ط2، 2007، ص124.

² - محمد أبو القاسم خمار، أوراق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1982، ص65.

إنّه نداء التحرر من أرض الأوراس؛ قبلة الشهداء، وأرض الثوار الخالدة، من شعب الجزائر المجيد وتاريخه الحافل بالبطولات، إلى فلسطين السليبية، والأردن الحبيبة، ودمشق المهيبية، إلى الأرض العربية، وشعوبها الأبية، آن أوان الكفاح، وحمل السلاح؛ إنها دعوة قومية لتصحيح المسارات المغلوطة، ورفع الغبن عن الوطن الفلسطيني المحتل.

أما شاعر الثورة "مفدي زكرياء" (1977-1988) فنظم قصيدته "فلسطين على الصليب"، بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة للتقسيم؛ وقد أفاد فيها من أسلوبه الخاص في الوصف الشعري، معتمدا تقنية الحوار الثلاثي؛ الذي جمع فيه بين فلسطين والعرب فضلا عن تدخله بوصفه طرفا ثالثا في ذلك؛ حيث قال¹:

أناديك، في الصرصر العاتيه	وبين قواصفها الذاربه
وادعوك، بين أزيز الوغى	وبين جماجمها الجائيه
وأذكر جرحك، في حربنا	وفي ثورة المغرب القانيه
فلسطين .. يا مهبط الأنبيا	ويا قبلة العرب الثانيه
ويا حجة الله في أرضه	ويا هبة الأزل، الساميه
ويا قدسا، باعه آدم	كما باع، جنته العاليه
فلسطين .. والعرب في سكرة	قد انحدروا بك للهاويه

عُرف شاعر الثورة الحماسة في الجهر بالصوت الشعري، فضلا عن معجمه الثوري المنتفض، ونفسه النضالي المتسارع، وها هو يجسد ذلك كله في هذه القصيدة التي أخذنا منها هذا المقطع، في نداء له لفلسطين الشقيقة، مشيدا بقداستها، ومذكرا بحرب الجزائر وعظمتها.

خاتمة:

تتضح صورة فلسطين جلية في الخطاب الشعري الجزائري الحديث، وقد اتخذت شكلا من أشكال النضال والمقاومة، وما قدمناه من نماذج شعرية ليس إلا ملمحا للتعبير عن الحضور القوي للقضية الفلسطينية في الوعي الفني لدى شعراء الجزائر، وقد انعكس هذا الأثر على أساليبهم التي اصطبغت بالتناسل الديني، وكذلك توظيف المعجم الثوري الحماسي، وتسارع الإيقاع الصوتي، فضلا عن مخاطبة الأحاسيس والمشاعر ثم مجادلة العقول بالحجج والبراهين.

¹ - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 279-280.